٢

المرأة الأوربية فى العصور الوسطى والمرأة العربية فى الجاهلية

من المفيد — فيما يبدو لنا — أن نوازن بين المرأة العربية والمرأة الأوروبية فى القرون الوسطى ، وأن نرسم الصورة المادية والمعنوية لكلتيهما ، وأن ندرس حالة كل منهما فى الزواج كذلك . ولسوف تعيننا هذه المقارنة على تفهم حال المرأة العربية ، تلك الحال التى لم تكد تتحسن منذ القرن السابع . ولعل المرأة الأوروبية — إذ تتذكر فى أى درك كانت تتخبط حوالى القرن الثانى عشر — تحس بمزيد من العطف على أخواتها فى الشرق ، وتساعدهن فى اجتياز تلك المراحل الصعبة ، التى ما زال عليهن أن يقطعنها حتى يبلغن الدرجة التى بلغتها هى فى المجتمع الحديث ؛ وإنها لكريمة القلب ، خليقة بأن تمد يد العون لرفيقاتها التعسات ، وتقودهن قيادة سمحة يقظة فى طريق التحرر . ولئن لاحظت الشرقية بدورها أن الأوربية لم تكن دائماً كما آلت إليه الآن ، فإنها لن تقنط من أن تفلح يوماً فى أن تضيف إلى فتنتها الطبيعية ألوان الزينة العقلية ، وأن تبارى بنات الغرب فى المعرفة والفضيلة ، كما نافستهن على مر الزمن فى التلطف والجمال والتحالى .

وإن قصص الفروسية وأشعارها لعامرة بصور النساء والفتيات .

ونستطيع إذا استوحيناها أن نتبين نموذج المرأة الذى كان رائجاً خلال العصور الوسطى وخاصة فى فرنسا ، وذلك مثلا كما توحى به اللوحة التالية :

سواء كانت تدعى « الايس » أو « ايجلانتين » أو « بلانشفلور » فهى بيضاء وردية ، كزهرة اللوتس ووردة الربيع ، شعرها من ذهب مجدول ، وجيدها كالعاج مصقول ، يعلوه وجه منتظم القسمات مستدير ، يشرق بجبهة بيضاء ملساء كالبلور . وعيناها كلون البحر مرحتان باسمتان ، يزينهما حاجبان منفرجان ، فلا تقلان عن عينى الصقر جمالا . وهى كأنها الطفل ، شفتاها كنور الخوخ ، دقيقة الفم ، منظومة الأسنان ، عطرة الأنفاس كمبخرة تتوهج أمام المذبح . وذراعاها أقرب إلى الطول ملفوفتان ، ويداها بديعتان بيضاوان ، وقدماها رشيقتان . نحيلة الخصر ، ناهدة الصدر ، منخفضة الأوراك ، ممشوقة القوام[1] . .

ويقابل هذه ، لوحة عربية من القرن السابع ، أسوقها إليكم دون أن ألمسها . . . ولعلنا نلاحظ بالمقارنة بينهما — إذا استثنينا سمرة العربية وشقرة الفرنسية — قوة التشابه بينهما إلى حد أوقع الفرنسيين والعرب فى لبس ، وإن كانوا به سعداء . وتروى لنا قصص الفروسية وأخبار الحروب الصليبية أكثر من مغامرة عاطفية نرى فيها فرساناً مسيحيين يتيمون بسيدة عربية ، كما نرى « بلانشفلور » و « إيجلانتين » بل والملكة « اليونور » ذاتها يؤثرن بحظوتهن بطلا عربياً عريق النسب ، كريماً . . . ولكن لنعد إلى لوحتنا :

---

(١) انظر جوتييه ، ص ٣٧٥ وما يليها .

عند ما أراد الحارث بن عمرو بن حجر ملك الكنديين ، أن يطلب يد الخنساء بنت عوف — وقد سمع آيات الثناء على جمالها — أرسل إليها امرأة محنكة داهية ، وهو يقول لها : « اذهبي وجدى فى أن تصفى لى بنت عوف هذه التى يتحدث الناس بها » . فكان ما قالته تلك المرأة الخبيرة بالمفاتن لمليكها ، عن الخنساء بعد إذ عادت من لدنها[1] : « رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خلته السلاسل وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها الوابل . ومع ذلك حاجبان كأنهما خطا بقلم أوسوّدا بحمم ، قد تقوسا على مثل عين الظبية العبهرة [2] التى لم يرعها قانص ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لم يخنس به قصد ولم يمض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان فى بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم فيه ثنايا غر ذوات أشر ، وأسنان تبدو كالدر وريق كالخمر له نشر الروض بالسحر ، يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يبين به عقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى دونه شفتان حمراوان كالورد ، يجلبان ريقاً كالشهد . تحت ذاك عنق كابريق الفضة ، ركب فى صدر تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحماً ، مكتنزان شحماً ، وذراعان ليس فيهما عظم

---

(١) العقد الفريد ج ٦ .
انظر بيرون : النساء العربيات ص ٥٢٥ .
(٢) الجامعة للحسن .

يحس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما ، لين عصبهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل ، وتركب الفصوص فى حفر المفاصل . وقد تربع فى صدرها حقان كأنهما رمانتان ، من تحت ذلك بطن طوى كطى القباطى [١] المدمجة [٢] ، كسى عكنا [٣] كالقراطيس المدرجة ، تحيط تلك العكن بسرة كمدهن العاج المجلو ، خلف ذلك ظهر كالجدول ، ينتهى إلى خصر لولا رحمة الله لانخزل [٤] تحته كفل يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دعص [٥] رمل لبده سقوط الطل ، يحمله فخذان لفاوان ، كأنهما نضيد الجمان ، تحملهما ساقان خدلجتان [٦] كالبردى وشيتا بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، ويحمل ذلك قدمان كحذوة [٧] اللسان تبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما . . .»

وحسبنا هذا « الجرد القانونى» الشاعرى الدقيق ، الذى قامت به عربية من العصر الجاهلى ، لتبيان العناصر التى كانت — وما زالت — تؤلف جمال امرأة ؛ فإن الذوق لم تتغير قواعده كثيراً فيما يختص بهذا الموضوع ..

---

(١) نوع من الثياب المنسوبة إلى قبط مصر .

(٢) الملفوفة .

(٣) عكن : مفرده : عكنة بالضم ، ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً .

(٤) المراد : أنه خصر دقيق رقيق .

(٥) الدعص : قطعة من الرمل مستديرة ، أو الكثيب منه .

(٦) ممتلئتان .

(٧) الحذوة : قطعة اللحم .

وهذا هو عربي من غطفان يصف للخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥–٧٠٥) ما ينبغي الكلف به من محاسن النساء ، فلا نكاد نرى فيما وصف أدنى اختلاف عما سبق ، يقول العربي [١] :

« خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين ، درماء [٢] الكعبين ، مملوءة الساقين ، جماء [٣] الركبتين ، لفاء الفخذين ، ناعمة الأليتين ، منيفة المأكمتين [٤] ، بدّاء الوركين ، مهضومة الخصرين ، ملساء المتنين [٥] ، مشرفة ، مفعمة [٦] العضدين ، فخمة الذراعين ، رخصة [٧] الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، زجاء [٨] الحاجبين لمياء [٩] الشفتين ، بلجاء [١٠] الجبين ، شماء العرنين [١١] ، شنباء [١٢] الثغر ، حالكة الشعر ، غيداء [١٣] العنق ، عيناء العينين ، مكسوة البطن

(١) العقد الفريد ج ٦ ص ١٠٨ .
(٢) داراهما اللحم .
(٣) كثير لحمها .
(٤) المأكمة لحمة على رأس الورك .
(٥) المراد ناعمة الظهر .
(٦) ممتلئتهما .
(٧) ناعمتهما .
(٨) حاجباها دقيقان طويلان .
(٩) فيهما سمرة .
(١٠) مشرقة مضيئة .
(١١) العرنين : الأنف .
(١٢) عذبة الأسنان .
(١٣) يميل وينثني ليناً .

ناتئة الرِّكَب [1] . »

والآن وقد قدمت لكم المرأة العربية ، والمرأة الفرنسية فى القرن الثانى عشر ، وكلتاهما حسناء مرحة رشيقة لطيفة ، فلعلكم ترغبون فى أن تتوثق معرفتكم بهما ، فتقفون على ذوق كل منهما ومزاجها ومشاغلها ، وتنفذون إلى أعماق قلبها ونفسها ، حتى تتحققوا من أن ذلك الغمد الثمين إنما يضم سيفاً نفيساً وأن ذلك الحسن الطبيعى البادى يوازنه حسن أخلاق كريم .

وإنه لمن العسير دائماً أن ترسم صورة أخلاقية ، ولا سيما إذا كانت صورة امرأه ، ومع ذلك فسنحاول هذا الأمر مبتدئين بالمرأة الفرنسية :

تلك التى تفتن العيون من أول نظرة وتحظى بجم الثناء ، يود الناظر إليها أن يعترف لها جملة بجميع المكارم والفضائل . ولكننا إنصافاً للحق نقول : ليس الكمال من شيمة البشر ، ولقد كان للفتاة الفرنسية — فى العصور الوسطى — مثالب ، حولتها طبيعتها الصريحة الجميلة إلى محاسن جزلة محببة. يقول جوتيه : « إذا رجعنا إلى شهادة الشعراء القدامى ، نجد أن الفتيات وقحات مستهترات لا يطعن إلا عنف الغريزة ، ويبدو أن المثل الأعلى الذى اتخذنه أسوة لمن هو ابنة شرلمان » [2] .

وينظر « مازوى » فى الأمر عن كثب فيقول : « كثيراً ما تذكر

---

(١) الركب : الفرج أو ظاهره .

(٢) جوتييه (Gautier) الفروسية . تعليق ص ٣٧٨ .

قصص الفروسية أن العرف كان يقضى بأن تعدم المرأة أو الفتاة التى تتهم بسوء السيرة. ولقد كان من النافع فى أثناء القرن الثانى عشر وإلى الرابع عشر — وهى عصور اضطراب وانحلال فى العائلة — أن يوضح الآباء للأبناء عبرة ذلك العقاب الذى خص به الأجداد الحب الآثم . . . ويبدى المؤرخون والشعراء أساهم وحسرتهم على حياة ربات القصور المنحلة ؛ فهنا فتيات يتبعن عشاقهن إلى خيامهم ، وهناك سيدات عريقات يستضفن فرساناً ويصلنهم كلما أغنى أزواجهن . . . ولقد كانت تتردد فى كل مكان أغنية تقول : « تباً للزوج الذى يدوم شهراً أو شهرين طويلين »[1] .

ويا لها من أخلاق فاسدة ، وإن كنا نرى أن النساء لا يحملن من وزرها إلا قدراً هيناً ؛ إذ هن إنما ينسجن سلوكهن على منوال سلوك الرجال أو هواهم . وقد اعتدنا أن نقول كلما ارتكب جرم : « فتش عن المرأة » ، فما بالنا لانقول حينما تخطىء المرأة : « فتش عن الرجل » ؟ فإن ذلك ليكون أكثر عدلا وإنصافاً .

وكيف يقال إن « الفتيات وقحات مستهترات » ؟ ومن المذنب الحقيقى وقد كان من الواجبات المفروضة عليهن أن يدللن ضيوف آبائهن حتى يناموا ؟ يقول « ب . ماير » : « كان التدليك أثناء الرقاد عنصراً من كرم

---

(١) مازوى (Mazuy) : ترجمة « رولان الثائر » لأريوست ، ص ٢٢ .

الضيافة قديماً . وكانت شئون الضيافة من نوم أو استحمام متروكة للنساء. ولكننا نستطيع أن ندرك كيف أدت تلك الحفاوة — التى كانت فى الأصل عناية صحية خالصة — إلى العبث فى مجتمع كان أقل من مجتمعنا تحرجاً إزاء بعض الأمور ، لا بالأقوال فحسب ، بل وبالأفعال كذلك . . » [1]

ولعل المؤرخين والشعراء لو درسوا نظام الزواج فى عهد الإقطاع ، لكفكفوا أساهم وحسرتهم على حياة ربات القصور المنحلة — كما يعبرون — ولالتمسوا لهن العذر . . .

فلقد كان من شأن النظام الإقطاعى فى الواقع ، أن يؤثر فى الزواج تأثيراً سيئاً . إذ لم يكن الإقطاع — وهو « قطعة من الأرض تنهض بمسئولياتها خدمة عسكرية » — مما يتولى أمره النساء وهن لا يصلحن بطبيعة الحال للقيام بالحرب . ولما كان الدفاع عن الإقطاع أمراً هاماً ، فقد كان على الوارثة — فتاة كانت أو امرأة ناضجة — أن تتخذ لها زوجاً يصبح بالوكالة قائماً بأداء واجباتها . ولقد كان الزواج الشرعى فرضاً على الفتاة ، منذ تبلغ الثانية عشرة من عمرها (وذلك من ناحية المبدأ ، إذ أنهم كانوا يزوجون الأطفال فى الخامسة أو السادسة) وعلى الأرملة كذلك ، منذ أن ينقضى على وفاة زوجها النبيل ثلاثة أشهر أو ثلاثين يوماً فقط فى بعض الحالات . يقول شاتوبريان : « لم يكن بد لوارثة عريقة النسب من أن

---

(١) ب . ماير (P. Meyer) : رومانيا ، الجزء الرابع ، ص ٣٩٤ .

تتزوج لضمان تصريف الأمور فى الإقطاع ، كما نرى اليوم النساء المشتغلات بالتجارة يتزوجن كبير عمال المتجر إذا مات الزوج ليتصل نشاط المؤسسة »[1] .

على أن المرأة المشتغلة بالتجارة تتمتع اليوم بحرية الاختيار ، بينما كانت الإقطاعية التابعة ملزمة أن تتزوج كما يريد لها الأمير ؛ فكان يحدث أن تخير بين ثلاثة فرسان ، هم مجرد ثلاثة أسماء ، غير أنها كانت فى أكثر الأحيان تسلم هى وما ملكت يداها لأحد المقاتلين الذين يرغب الأمير فى أن يكافئهم على حسن بلائهم . فكيف كان يمكنها إذن أن تحب هذا الرجل الذى قد فرض عليها فرضاً ؟

ولقد كان الطلاق يتم بتلك السهولة نفسها . فلقد «كان من المحرم عقد الزواج بين من تجمعهم القربى حتى الدرجة السابعة — وذلك قبل انعقاد مجتمع لاتران سنة ١٢١٣ — وقد أباح هذا المجمع الزواج حتى الدرجة الرابعة . غير أن هناك روابط القربى الروحية التى كان حكمها كحكم القربى الصحيحة . فكان يحدث أن يكتشف الزوجان فجأة بعد انقضاء بضع سنين على زواجهما ، أنهما قريبان ، مما يوجب الطلاق حرصاً على الأخلاق الفاضلة والدين »[2] .

ورب قائل يقول عن تلك العصور : إنها كانت إذن عصور اضطراب

---

(١) تحليل وشرح لتاريخ فرنسا . ص ٨٩ .

(٢) جوتيه : المرجع السابق ذكره .

واختلال فى العائلة ! وهو على حق فى تساؤله ؛ إذ كيف يتوفر لها أن تكون حينئذ على غير ذلك وقد كان الزواج ينعقد ثم ينحل على النحو الذى رأيناه ، والرجال لا يضمرون للنساء احتراماً بل يزدرونهن أعمق الازدراء ؟ لقد كانوا يفضلون عليهن جواداً كريماً [1] ، أو طعنة نجلاء تسددها حرابهم . وكانوا يرددون دائماً أن « من الجنون أن تثق بامرأة » ، « وأن الندم عاقبة من يمعن فى تصديق امرأته » وأن « المرأة وثمرة الشمام لا يمكنك معرفتهما جيداً » ! إلى غير ذلك من الكلمات اللاذعة . بل لقد كانوا يمنعون المرأة من أن تتقدم أمام القضاء أو أن تعقد عقداً دون موافقة زوجها . وفوق ذلك ، حمل الذكاء الشارع على أن يخصص حالتين يجوز فيهما للزوج أن يضرب زوجته : وهما « حالة الزنا وحالة عصيانها لإرادة البارون » . وكان العرف أرحب صدراً . . إذ نرى الإمبراطور بيبان (Pépin) — فى قصة (موث جاران) ص ١٠٢ — يضرب زوجته حتى ينزف الدم من أنفها ، لأنها طلبت منه أن يغيث أهل « الاورين » ، وهى راضية بهذا العقاب الجائر ، بل ونسمعها تسأل زوجها فى ذلة أن يضربها ما طاب له الضرب ! . . ولا شك فى أن رعايا الإمبراطور كانوا يقتدون به فى هذا الشأن ، ويتخذون من مسلكه مثلا أعلى يحتذونه . وتشهد بذلك

---

(١) دميه (Demay) ص ٤٢ : « كان الاعتقاد المأثور ينقص الأنثى سائداً فى الفروسية . فكان الفرسان لا يعتدون إلا بالحصان ، وينبذون الفرس ويتركونها للأعمال العادية . وكان من العار على الفارس أن يمتطى صهوة فرس » .

تلك الحكمة التى صاغها « لرو دى لانسى »(Leroux de Lincy) فى العبارة التالية :

« إذا ضربت زوجتك مرة نهقت ، وإذا ضربتها مرتين صمتت » .

وبالرغم من تلك الحطة التى لا سبيل إلى إنكارها ، فإن المرأة قد استطاعت — بفضل دهائها ومثابرتها — أن تصبح شريكة الرجل ، وقسمه ورفيقته ونظيرته ، ثم أفلحت بالسعى رويداً رويداً فى أن تسم العصور الوسطى بطابعها ، وأن تخفف بلطفها عنت تلك القرون، قرون السنان والطعان . فاستأنست المقاتل الجلف وروضته ، وسحرته وهذبته ، وجعلته فى آخر الأمر يسجد عند موطىء قدميها مؤمناً ورعاً يبتهل للحب والجمال .

فخذن العظة يا نساء الشرق وتعلمن ، يا من تقررن مصير الأرض !

* * *

ولسنا فى حاجة إلى الإغراق فى أبحاث علمية كى نحدد الدائرة التى تنحصر فيها معارف المرأة العربية . فقد كانت الخيمة مدرستها ، والطبيعة أستاذها ، وهى تخيط وتنسج ، وتعنى بشئون بيتها ، وتربى أطفالها ، وتغنى لهم حتى يناموا . وهى تعرف الأنساب كما سمعتها على لسان أبيها ، فتذكر تاريخ القبيلة المجيد ، وسلسلة الأجداد، ومواقف الأبطال ، وجيد الأشعار. وهى بتطلعها إلى السماء ومراقبة السائمة ، استطاعت أن تلم بسير الكواكب وطبائع الحيوانات الأليفة وتكوين أجسامها ، وأن تميز النبات الطيب من الخبيث . وهى تشترك فى أعياد القبيلة ومآتمها ، فتعرف كيف ترثى فى

نبرات رخيمة مؤثرة بطلا من أهلها كان أباً لها أو زوجاً أو ولداً أو أخاً . وهى فصيحة بفطرتها تضيف كلماتها إلى روعة ما تتحدث عنه روعة وسحراً ، فيصغى إليها الرجال خاشعين مفتونين .

والعربية عفيفة حرة أبية ، نافرة . وهى ابنة مطيعة ، وأخت ودود ، وزوجة حانية ، وأم متباهية ، تحب أمجاد البطولة فى الحرب ، وتحب التضمخ بالمساحيق والعطور . وهى ذات دل تستخدم مفاتنها لإثارة الحماسة وإلهاب الحمية ، وإلهام الشعراء ، وإحداث البطولات وصنع الأبطال. وفى سبيل استرضائها ، والفوز بإعجابها وحبها ، وحمايتها[1] يصبح المرء فارساً كاملاً ومقاتلاً لا يعتريه خوف ، وشاعراً مفلقاً ، وجواداً متلافاً ، وعاشقاً متيماً . وهكذا كان لكل بطل من أبطال العرب الأقدمين امرأة يدين بحبها ، وكانت قصائدهم التى تتغنى بمعمعة الوغى ونشوة النزال تبدأ بتحية أو بابتسامة يرسلها الشاعر لحسنائه . وقد بلغ من تمكن عادة التودد هذه أن أصبحت — قبل الإسلام بزمن طويل — قاعدة تكاد تكون ثابتة فى قرض الشعر . فقد كان من اللازم حينئذ أن تضم كل قصيدة

---

(١) فقد وقف ربيعة فى مدخل شعب قديد رغم جراحه لحماية قافلة النساء التى كادت تقع فى أسر العدو حتى تحققت لها النجاة وقضى هو نحبه على صهوة جواده والرمح فى يده .

وفى يوم ذى قار (عام ٦١٤) بين البكريين والعجم وقد كانت النساء فى مؤخرة الجيش العربى لإثارة حمية الرجال ، قطع حنظلة أربطة الهوادج حتى يستميت كل بكرى فى قتال عدوه وحماية امرأته التى لم يعد من منجى لها .

(قديمة أو حديثة) أبياتاً خاصة فى الإشادة بمحاسن الحبيبة وعهد وصالها أو الشكوى من تدللها وصدودها . وقد جرى الشعراء على الاستهلال بهذا النسيب . وفيما يلى بعض الأمثلة لذلك ، وقد اخترناها من المعلقات السبع ، وهى أروع القصائد العربية فى العصر الجاهلى ، وقد اتخذت نماذج للشعر التقليدى .

يقول امرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

... ...

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

أغرك منى أن حبك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعل ؟

... ...

وإن تك قد ساءتك منى خليقة   فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وقال طرفة :

وفى الحى أحوى(١) ينفض المرد(٢) شادن(٣)   مظاهر سمطى(٤) لؤلؤ وزبرجد

---

(١) فى شفتيه سمرة .

(٢) الغصن من ثمر الأراك .

(٣) الغزال .

(٤) خيط العقد .

خذول تراعى ربربا بخميلة [1] تناول أطراف البرير [2] وترتدى
وتبسم عن ألمى كأن منـــورا تخلل حر الرمل دعص [3] له ندى
سقته أياة [4] الشمس إلا لثاته أسف ولم تكدم عليه بإثمد [5]
ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليه نقى اللون لم يتخـــدد

وقال زهير :

أمن أم أوفى دمنة لم تــكلم بحومانة الـــدراج فالمتثـــلم
... ...
فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم

وقال عنترة :

يا دار عبلة بالجـــواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى
... ...
إن كنت أزمعت الفراق فإنمـــا زمت ركابكم بليل مـــظلم
... ...

---

(١) تركت أولادها وذهبت ترعى مع صواحبها فى هذه الخميلة .
(٢) ثمر الأراك البالغ (أى تتناول أطراف الأراك وترتدى بأغصانه) .
(٣) كثيب الرمل .
(٤) شعاعها .
(٥) الكحل . والكدم : العض .

إذ تستبيك بذى غروب واضح عذب مقبله لذيذ المطعم
وكأن فارة[1] تاجر بقسيمة سبقت عوارضها إليك من الفم
أو روضة أنفا تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم

وقال لبيد :

شاقتك ظعن[2] الحى حين تحملوا فتكنسوا[3] قطناً تصر خيامها
بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت أسبابهـا ورمامها [4]
مرية حلت بفيد [5] وجاورت أهل الحجاز فأين منك مرامها
فاقطع لبانة [6] من تعرض وصله ولشر واصل خلة [7] صرامها[8]

وقال عمرو بن كلثوم :

تريك إذا دخلت على خـلاء وقد أمنت عيون الـكاشحينا

---

(١) المقصود رائحة المسك .
(٢) المقصود نساء القبيلة .
(٣) المقصود دخلن الهودج .
(٤) جمع الرمة وهى قطعة من الحبل خلقة ضعيفة .
(٥) اسم بلدة .
(٦) الحاجة .
(٧) المودة والخليل .
(٨) قطاعها .

ذراعى عيطل[1] أدماء بكر هجان[2] اللون لم تقرأ جنينا[3]
ومشى لدنة سمقت وطالت وكشحا قد جننت به جنونا
وساريتى[4] بلنط[5] أو رخام يرن خشاش حليهما رنينا
... ...
فما وجدت كوجدى أم سقب[6] أضلته فرجعت الحنينا
تذكرت الصبا واشتقت لما رأيت حمولها أصلا حدينا

وقال الحارث :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة[7] شماء فأدنى ديارها الخلصاء[8]
فالمحياة فالصفاح فأعنا ق فتاق فعادب فالوفاء[9]
فرياض القطا فأودية الشر ب فالشعبتان فالأبلاء[10]
لا أرى من عهدت فيها فأبكى اليوم دلها[11] وما يحير البكاء[12]

(١) الناقة الطويلة العنق البيضاء .
(٢) الأبيض الخالص البياض .
(٣) لم تحمل .
(٤) الاسطوانة .
(٥) العاج .
(٦) السقب : ولد الناقة .
(٧، ٨، ٩، ١٠) هذه كلها مواضع عهد بها .
(١١) الدله : ذهاب العقل .
(١٢) المراد : أن البكاء لا يفيد ولا يرد شيئاً .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت المرأة الجاهلية فى منزلة تُحسب أدنى من منزلة الرجل . فلقد كانت فى حماه وكأنها متاع يمتلكه . وكانت تخضع لسلطة أبيها ، وفيما بعد لسلطة أبنائها ولا سيما ابنها الأكبر. غير أن هذه السلطة التى تكبحها العاطفة ، كانت حملا هين الوطأة على المرأة .

ولم تكن تبعية المرأة فى أكثر الأحيان إلا عنواناً ضخماً يرضى به الرجل غروره . فلقد كانت للعربية فى الواقع شخصيتها ؛ فهى باسلة شجاعة ، وما كانت لتبكى موتاها حتى يثأر بهم ، وكانت تتبع زوجها إلى ميدان القتال (١) تحمل الماء لتسقى المحاربين ، وتقرع الدف ليستر الضجيج حشرجة المحتضر ويحث الرجال على التناحر ، وتعنى بالجرحى ، بل وكثيراً ما كانت تشترك فى المعركة وفى النصر اشتراكاً إيجابياً حاسماً .

والأمثلة لذلك عديدة ، أسوق منها موكباً من البطلات إن شئتم :

فهاتان هما ابنتا الشاعر البكرى ، عذراوان حسناوان نافرتان ، تريان

(١) من معلقة عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بعض حسان ... نحاذر أن تقسم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهداً ... إذا لاقوا كتائب معلمينا
ليستلبن أفراساً وبيضاً ... وأسرى فى الحديد مقرنينا
... ...
إذا ما رحن يمشين الهوينى ... كما اضطربت متون الشاربينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا
ظعائن من بنى جشم بن بكر ... خلطن بميسم حسبا ودينا

فى « يوم النواصى » كتائب قبيلتهما متخاذلة ، فترتميان فى معمعة الوغى ، عاريتين تقريباً ، وترتجلان صيحات رائعة ... وبالسطوة الجمال وصنعه ، فإن النصر يذعن لسحر الفارستين الحسناوين وينتظم منصاعاً فى صف البكريين .

وهذه عمرة بنت علقمة التى تلقفت الراية حين سقطت فى وطيس موقعة أحد ، ونشرتها ، وهى تسخر من المقاتلين المترددين حتى تقودهم إلى الظفر .

وفى موقعة أحد ذاتها تنشد هند :

نحن بنات طارق إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

وكان النساء فى مؤخرة الجيش يرددن ترديد الجوقة ، وهن يقرعن دفوفهن :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضرباً بكل بتار

وهذه أيضاً أسماء بنت أبى بكر ، حوصر ولدها فى مكة (نحو سنة ٦٩٢م) وخطر له أن يستسلم إذ نضبت موارده وخشى أن يمثل به

الأعداء بعد أن يقتلوه . . فجاء إلى أمه يطلب الرأى لديها، فأبت عليه التسليم قائلة : « يا بنى ، عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ، ولا يهمنك ما يفعلون بك بعد موتك ، فإن الشاة لا يضيرها بعد ذبحها أن تسلخ . . »

وحين جرح ربيعة فى معمعة الوغى (فيما بين سنة ٥٨٠ وسنة ٦٠٠م) اضطر إلى أن يلحق بركب النساء وهو يقول لأمه « أم سيار » : « ضمدى جرحى . فلقد أصابوا منك مقتلا فى ولدك » فأجابته الأم : « لهنى عليك ، ولكنا هكذا نفقد أشجع حماتنا . ونحن وإن كنا لا نرى كارثة أشد منها، إلا أنا قد اعتدناها » . وكانت وهى تضمد جرح ولدها الذى سألها أن يشرب تقول له : « إذا شربت يا ولدى مت فى الحال ، فخير لك أن تمضى سريعاً لمهاجمة العدو » [1] .

ونحن نخشى إذا أكثرنا من إيراد الأمثلة لذلك ، أن يصبح حديث الشجاعة حديثاً معاداً ممجوجاً . ولقد صدق « لامارتين » إذ قال : « إن النساء بطبيعتهن يتحمسن تحمس الشعراء ، ويستبسلن استبسال الأبطال » .

ولقد نشبت مئات الحروب وكان أول أسبابها امرأة . ولكن ذكرى هؤلاء النساء — وبينهن « هيلين » الحسناء — لم تكن بالذكرى الملعونة ، بل إنها لذكرى عطرة ، تنشر فى جو القتال المقدس شذى الشهامة الكريمة . فما كان المحاربون يشنون الحرب لرد امرأة إلى زوجها ، بل لحماية

---

(١) كوسان دى برسفال ، الجزء الأول ، ص ٥٤٥ .

ضعفها ، والذود عن فضيلتها ، ووقاية شرفها وعرضها من كل دنس .

لقد شن البكريون على التغلبيين حرباً ضروساً دامت على أقل تقدير أربعين عاماً ، وكانت تلك هى حرب البسوس التى كان من سببها أن « البسوس » خالة جساس بن مرة ، أطلقت ناقتها ، فوردت ماء كليب بن وائل وسط إبله ، فصرعها ، فاستنجدت ، فهب جساس إلى نجدتها ، فصرع كليبا . . وثارت تلك الحرب التى اشتهرت « بحرب البسوس » واستمر أوارها كما ذكرنا أربعين عاماً (سنة ٤٩٤ — ٥٣١م) .

كما كان سبب قيام حرب الفجار الثانى ، أن فتية قعدوا إلى امرأة من بنى عامر بن صعصعة وضيئة ، يسوق عكاظ ، وكان عليها برقع وهى فى درع فضل ، فأعجبهم ما رأوا من هيئتها فسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت عليهم ، فأتى أحدهم من خلفها فشد دبر ثوبها بشوكة إلى ظهرها وهى لا تدرى ، فلما قامت تقلص الثوب عن دبرها فضحكوا وقالوا : منعتنا النظر إلى وجهها فقد رأينا دبرها . . فنادت المرأة : يا لعامر ! فتحاور الناس وكان بينهم قتال ودماء يسيرة ، فحقنها حرب بن أمية وأصلح بينهم (٥٨٠م) [1] .

ولحرب « البراق » كذلك أصل روائى رائع : فقد بلغ أسماع كسرى ملك الفرس ثناء جم على جمال ليلى العفيفة ، فقرر أن يضيف إلى كنوز « حريمه » درة بنى ربيعة هذه ، وأرسل وفداً تحف به فرق غفيرة من الجند

---

(١) العقد الفريد جـ ٥ ص ٢٥٢ . (تحقيق)

يطلب إلى « لكيز » يد ابنته ليلى — وكان العرب يعتبرون مصاهرة الأجنبي عاراً أى عار ، حتى ولو كان أميراً أو ملكاً — فرفض لكيز مطلب كسرى ، فاختطف جنوده ليلى واقتادوها إلى بلاد فارس . وهناك منحت قصراً تستريح فيه من وعثاء السفر واضطراب النفس . وسعى أهل القصر بكل وسيلة ليحملوها على معاشرة الملك . . . يتوسلون باللين تارة ، وبالوعيد أخرى ، ثم بألوان الإرغام والحرمان أخيراً . ولكنهم لم يفلحوا فى التأثير على الحسناء الثائرة العنيدة ، التى انبعثت أناتها فى أبيات بسيطة رقيقة تخاطب فيها ابن عمها وحبيبها البراق وقبيلتها بنى ربيعة قائلة :

ليت للبراق عينا فترى   ما ألاقى من بلاء وعنا
يا كليبا وعقيلا إخوتى   يا جنيداً أسعدونى بالبكا
عذبت أختكمو يا ويلكمو   بعذاب النكر صبحا ومسا
قيدونى غللونى ضربوا   ملمس العفة منى بالعصا
يكذب الأعجم ما يقربنى   ومعى بعض حشاشات الحيا
قيدونى غللونى وافعلوا   كل ما شئتم جميعاً من بلا
فأنا كارهة بغيكمو   ويقينى الموت شىء يرتجى
أحذروا العار على أعقابكم   وعليكم ما بقيتم فى الدنا

ولقد هزت هذه الأبيات مشاعر العرب وحركت عواطفهم ، فانضموا جميعاً إلى قبيلة بنى ربيعة وهبوا يحاربون الفرس . وبعد أحداث شتى ،

تم خلاص ليلى العفيفة ، وتزوجت الفتى الذى كان يحبها وكانت هى تحبه ، وهو ابن عمها البراق !

ولم تكن النساء لتقل عن الرجال شجاعة وأريحية ونبلا .

فهذه فاطمة أم الكاملين — حينما أسرت فى غارة شنّها جماعة معاوية — تلقى بنفسها من فوق ناقتها ، دافعة برأسها أولا ، وتنتحر ، إذ أبت على سوء حظها أن يلوث اسمها وأسماء أبنائها ، وآثرت الموت على أن تحوم ريبة حول عرضها ، فكانت أشد اعتزازاً بنفسها من « لوكريس».

وهذه ريثة — أرملة ربيعة — ترغم قبيلتها على أن تفرج عن دريد ، وتمنحه بنفسها ملابس وسلاحاً . ذلك أن دريداً فى لقاء سابق ، كان قد أبدى مروءة نحو ربيعة ، فحرصت ريثة على أن تثبت له عرفانها بالجميل.

وهذه الحسناء « بحيصة بنت عوف » ، فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها ، ترفض أن يتم زواجها ما اتصلت الحرب بين العبسيين والذبيانيين ، ونسمعها ترد زوجها المتودد المتلهف قائلة : « إنك لا تفكر إلا فى لذة الزواج والاستمتاع به ، بينما العرب يتقاتلون ؛ ولقد كان أولى بك أن تسعى بين تلك القبائل المتعادية ، لترسى السلام بينها ، حتى إذا أديت عمل الرجل النبيل الكريم الأصيل ، عدت فوجدت زوجتك وذقت أحلى متع الزواج » . فيسرع الحارث نحو القبائل المتعادية ، متحمساً لهذه الفكرة السامية ، مضطرم الوجدان ، تذكى جذوته أكرم العواطف ، ويفلح بحكمته فى حمل القوم على إقرار السلام .

وإن من الظواهر ما يجلو لنا ملامح الشعوب : فلقد كان لليونان حكماء من الرجال ، وكان للعرب حكماء من النساء أيضاً ، ومنهن سكر بنت لقمة وجمعة بنت حابس ، وخصيلة بنت عامر ، وهند بنت القس ، وخزام بنت الريان . . .

ولقد روت لنا روما ذكرى أم « الجراك » التى كانت تفتخر بأن تشير إلى أبنائها وتقول : « ها هى ذى درری» . وإذا كانت « كورنيلى»[٢] أيضاً قد باتت مضرب المثل فى روما ، فقد عرضت بلاد العرب أكثر من أم تضرب بها الأمثلة . لقد كان لدى العرب « الأمهات السعيدات » أى اللواتى أنجبن أبطالا . وقد حفظ لنا التاريخ ثناءه على ثلاث منهن : حيية بنت رياح من قبيلة بنى رانى ، وماوية بنت مناة من قبيلة بنى دارم ، وفاطمة امرأة زياد التى لقب أبناؤها السبعة بنعوت الحمد ؛ فكان الأول يلقب بالكامل والثانى الوهاب والثالث أنس الفوارس والرابع البرد والخامس الحرون والسادس اللاحق والسابع الدارك[١] .

وقبل أن تظهر ندوات دار « رامبوبيه » (Rambouillet) بنحو عشرة قرون ، كانت لبلاد العرب خيماتها الأدبية والفنية حيث كان يحتكم أدباء العصر إلى امرأة من أهل الذوق والمعرفة . ولما كنا قد أسلفنا الحديث

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٩ .

عن الأحكام التى كانت تصدرها سيدات الغرب فى محاكم الغرام ، فمن الإنصاف هنا أن نذكر مثلاً الحكم الذى أصدرته « أم جندب » فى المفاضلة بين شاعرين كان أحدهما زوجها :

فقد كان علقمة بن عبدة من تميم معاصراً لامرئ القيس ، وينازعه الشعر ، فتحاكما مرة إلى أم جندب زوجة امرئ القيس ، فاقترحت عليهما أن ينظما قصيدتين من وزن واحد وقافية واحدة فى وصف الخيل .. فنظم امرؤ القيس قصيدته التى مطلعها :

خليلى مرا بى على أم جندب لنقضى لبانات الفؤاد المعذب

وكأنما أراد بهذا المطلع ، التأثير على زوجه بتحريك عواطفها .. بيد أن تأثير الحق على أم جندب ، كان أكبر ، فلم تحفل بإثارة العواطف ولا بالصلة الزوجية ؛ فلما سمعت قصيدة علقمة التى مطلعها :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

حكمت له وأيدت حكمها بالبرهان ؛ ومن ذلك أن امرأ القيس لما وصف سرعة فرسه علق هذه السرعة على إجهاد الفرس بالسوط إذ قال :

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب

وأما علقمة فإن فرسه أدرك طريدته وهو ثان عنانه حيث يقول :

فأدركهن ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

ولقد أثر هذا الحكم على امرئ القيس حتى طلق أم جندب ، كما أثر على علقمة فاستحسن أن يعوضها بنفسه زوجاً، اعترافاً بحريتها وتقديراً لإدراكها وعدالتها . .

ويقول الأستاذ « كامبو » (Campeax) ، فى كتابه « مسألة النساء فى القرن الخامس عشر » : « اعترفت معاهدة بيجور » (Bigorre) . المعقودة سنة ١٠٩٧ للسيدات بنفس الامتياز الذى كان للكنائس ؛ ألا وهو حق حماية اللاجىء ، فكان المستظل بثوب سيدة كالمستظل بحصن منيع ، وكان من يلوذ بأقدام سيدة يضمن سلامته ، ولا بأس عليه إلا أن يعوض ما أفسده »[1] .

أما فى بلاد العرب فإنه لم تعقد معاهدة من هذا القبيل ، وإنما جرى العرف من قديم على الاحتفاظ للنساء بحق حماية اللاجىء حماية فعلية وفعالة ، تعود على المذنب بالعفو ، وتبقى للأسير فى ميدان الوغى حياته وحريته .

لقد مضى مسعود ، أحد زعماء قيس ، قبل أن يشن معركة عكاظ (حوالى سنة ٥٨٠ م) يقول لزوجته : « سوف أمنح الأمان لكل قريشى

---

(١) ص ٦ ، ٧ .

يلوذ بخيمتك » . فراحت تجمع رقعاً من القماش توسع بها خيمتها لتفسح المجال لأكبر عدد من اللاجئين . ولكن زوجها أعلن لها بأنه لن يبقى إلا على عدد من الرجال لا يتجاوز ما تحتويه خيمتها بحجمها الأصلى؛ فأجابته قائلة : « قد يأتى وقت تتمنى فيه لو كانت خيمتى أفسح رحاباً ».

ولقد تحقق ذلك ، فقد كان مسعود — رغم شجاعته — مغروراً فاندحر ، وهرع هو والذين فروا معه فلاذ بخيمة زوجته . فلما أقبل « حرب » قائد القريشيين ، قال : « يا أخت أبى ، إنى أمنح الأمان كل من يدخل خيمتك ، أو يلمس حبلا من حبالها ، أو يطوف حولها » .

وإذ ذاك رددت زوجة مسعود بصوت مرتفع تصريح القائد الظافر ، وأرسلت أبناءها الأربعة ليبحثوا عن الذين لم يجدوا ملجأ يدرأ عنهم شر المطاردة . وسرعان ما التأمت حول الخيمة الحرام حلقة واسعة من الهاربين تولت هى خدمتهم ، وأمنهم « حرب » جميعاً على سلامتهم وحريتهم [1].

وكان أبو العاص — وهو الذى تزوج زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم فرق الإسلام بينهما — قد وقع أسيراً مع قافلته ، وسيق معهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستجار أبو العاص بزينب ، فوعدته خيراً ، وانتظرت حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر بالمسلمين ، ثم وقفت على بابها — فى المسجد — فنادت بأعلى صوتها : «إنى قد أجرت أبا العاص ابن الربيع» ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) راجع كوسان دى برسفال : بحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام .

أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ » قالوا : « نعم ». قال : « فوالذى نفسى بيده ما علمت بشىء مما كان حتى سمعت الذى سمعتم . المؤمنون يد على من سواهم ، يجير عليهم أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت » [1] .

وما زال أثر المرأة هذا قائماً حتى اليوم لدى البدو على أقل تقدير . ويكفى أن أستشهد بمثل واحد أستقيه من كتاب القائد « دوما » — الذى نشر بعد وفاته — وهو من القلائل الذين عرفوا أخلاق عرب الجزائر وعاداتهم . يقول :

« خرج أولاد يعقوب يلتمسون غنيمة ، فكشفوا مخيماً لأولاد نائل الذين كانوا يناصبونهم العداء ، فقرروا أن يهاجموهم فى الحال . وكان القوم حشداً غفيراً ، فلم يتعسر عليهم أن يحدقوا من كل جانب « بالنزلة » التى جمع أولاد نائل فى وسطها كل قطعانهم . ولما رأى أولاد نائل أن عدواً يفوقهم عدداً وبأساً قد حاصرهم ، لم يفكروا فى المقاومة ، بل مضوا ينشدون السلامة فى حمى النساء ، أى فى ذلك الاحترام الذى لا شك يكنه لهن الفرسان .

وأسرعت أربع حسناوات من نساء النزلة ، مهدلات الشعور ، محلولات الأحزمة نحو جهات المخيم الأربع ، وتصدين للعدو صائحات :

---

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧ .

والمرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها ج ٢ ص ٥٢ . وقد عاد أبو العاص بعد ذلك إلى مكة فأدى الحقوق إلى أهلها، ثم آب إلى المدينة مسلماً ، فرد عليه النبى زوجه (تحقيق)

« هذا الجانب فى حماى ، والفارس الباسل من يرعى حرمة النساء . »

فلما رجع المهاجرون إلى قبيلتهم ، انهالت عليهم الأسئلة ، إذ عادوا صفر الأيدى ، مما أثار سخرية المستطلعين. ولكنهم أجابوا دون انفعال :

« لقد أصبنا أعداءنا ، وظهرنا عليهم ، إلا أن أربع نسوة استردنهم بقدرة ما لهن علينا من حرمة » .

وأضافوا : « إن عرض المرأة كوهج الشمس فى السماء ، يستحيل على البصر أن يحدق فيه » .

وقالوا أيضاً : « إنما ينبغى للمرأة من الاحترام والإجلال ما ينبغى لذوى السلطان ، ولو قد سألتنا جيادنا لأعطيناهن إياها » .

ولقد نظر العرب فوق ذلك إلى دور النساء دائماً نظرتهم إلى البيت الحرام . وما لفظة « الحريم » — وهى التى انتقلت إلى اللغات الأوربية وفى نبراتها وحى من أسرار الشرق وملذاته — إلا كلمة تعنى « الممنوع » أو « المقدس » ، وأما « الحرمة » فتعنى فى وقت واحد المرأة والزوجة والشىء المقدس » الذى لا يحل انتهاكه .

على أن محيط الحماية التى اختصت بها المرأة لم يكن محدوداً بظل ثوبها أو بمضرب خيمتها أو نطاق دراها ، بل كان أبعد مجالاً وأشمل . فلقد كانت خصلة من شعر امرأة كالتميمة الواقية من المكاره ، أينما علقت أفشت السلام وكفلته . يقول الأستاذ كاترمير : « ولا ينبغى أن أنسى ذكر أنجع وسيلة استخدمها العرب إذا أحدق بهم الخطر وأرادوا الحصول

على حماية مقاتل أو أمير اشتهر بالشجاعة . فقد كان المرء منهم يجتز شعر امرأته أو قريبة له ويرسله إلى من استنجد به . ويقدم لنا التاريخ الشرق عدة أمثلة لذلك : فبعد اغتيال الخليفة الفاطمى الظافر ، كتبت أخته تستغيث بالأمير طلائع بن رزيك، وطوت رسالتها على شعور من رءوس نساء القصر ؛ فلما دخل طلائع القاهرة ، أمر جنده بأن يرفعوا على رماحهم تلك الشعور التى أرسلت إليه ، مظهراً بذلك للشعب ما حازه من تقدير ومن ثقة فى صورة رائعة . وكذلك فعل عضد الدولة إذ حاصره الفرنجة فاستنجد بنور الدين وأرسل إليه قصة من شعور نسائه . وفى أثناء فتح الأتراك لليمن ، أراد « مظاهر » أن يستنجد بالعرب ، فأرسل إليهم شعور زوجاته وبناته وغيرهن من نساء المدينة التى كان والياً عليها . وكان الرجال الكرام إذا تلقوا مثل هذا الدليل على كربة قوم ، لا يتوانون فى إغاثة أولئك المستنجدين الذين وضعوا — على هذا النحو — فى كنفهم أعز ما لديهم فى الدنيا »[1] .

وإن فيما أسلفنا من استشهادات وأمثلة ، ما يكفى ليبين أن مجتمعاً منظما قد ازدهر فى بلاد العرب منذ القرن السادس ، وهو مجتمع تسوده فى آن واحد رقة الود والمجاملة وصرامة الحرب والفروسية ، وتنال فيه البنات والأخوات والزوجات والأمهات دلائل الحب والإعجاب والاحترام ، ويتم فيه كل

---

(١) كاترمير : مزاج من التاريخ وفقه اللغات الشرقية ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ : « مقالة فى الملاجىء عند العرب » .

شيء من أجلهن بل وبأيديهن، من حرب أو سلام ، ومن تاريخ أو أساطير ! ولا حاجة بنا إلى استعراض جميع فروع النشاط الإنسانى لنسمى من نساء العرب من شاركن فيها بنصيب ، فإنهن لعديدات أولئك اللواتى امتزن واشتهرن فى الشعر والسياسة وفى التجارة والصناعة وفى الطب وفنون الحرب وفن الخطابة ، فضلا عن الكهانة التى يبدو أنها كانت فى جميع بلاد الدنيا أو كادت تكون وقفاً على أفضل نصفى الرجل . ولسوف نقتصر هنا — بدلا من سرد قائمة من الأسماء قد تكون مملة رغم ما تعبق به أسماء النساء من عطر حلو — على تقديم مختارات قصيرة من المراثى النسائية. وبعد أن نتطهر فى هذا النبع الصافى من دموع شاعراتنا ، نستطيع أن نعالج موضوع الزواج فى الجاهلية ، وموضوع المرأة فى الإسلام ، والمرأة طبقاً لما ورد فى القرآن .

فهذه أميمة بنت عبد شمس ترثى ابن أختها أبا سفيان بن أمية ومن قتل من قومها فى حرب الفجار ، فى أبيات منها [1] :

أبى ليلك لا يذهب ونيط الطرف بالكوكب
ونجم دونه الأهوا ل بين الدلو والعقرب
وهذا الصبح لا يأتى ولا يدنو ولا يقرب
بعقر عشيرة منا كرام الخيم والمنصب

(١) الأغانى ج ١٩ ص ٨٢ .

أحـــال عليهم دهـــر حـــديد النـــاب والمخلب
فحل بهم وقـــد أمنـــوا ولم يقصر ولم يشطب
وما عنه إذا ما حل ل من منجى ولا مهرب
ألا يا عين فابـــكيهم بدمـــع منك مستغرب
فإن أبك فهم عـــزى وهم ركنى وهم منـــكب
وهم أهلى وهم فـــرعى وهم نسبى إذا أنسب
وهم مجدى وهم شرفى وهم حصنى إذا أرهب
وهم رمحى وهم تـــرسى وهم ســـيفى إذا أغضب
فـــكم من قائل منهم إذا ما قال لم يكذب
وكم من ناطق فيهم خطيب مصقـــع معرب

وهذه أيضاً لبانة ترثى زوجها محمد بن هرون الرشيد [1] :

أبكيك لا للنعيم والأنس بل للمعالى والرمح والفرس
يا فارسا بالعراء مطرحا خانته قوادة مع الحرس
أبكى على سيد فجعت به أرْمَلَتَى قبل ليلة العرس
من للحروب التى تكون لها إن أضرمت نارها بلا قبس
أم من لبر أم من لفائدة أم من لذكر الإله فى الغلس

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٦ .

ولصفية بنت عمر البهلية ترثى زوجها [1] :

كنا كغصنين فى جرثومة [2] بسقا [3] ... حيناً على خير ما ينمى به الشجر
حتى إذا قيل قد طالت فروعهما ... وطاب قنواهما واستنظر الثمر
أخنى على واحد ريب الزمان وما ... يبقى الزمان على شىء ولا يـذر
كنا كأنجم ليل بينها قمـر ... يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

وللخنساء فى رثاء أخيها صخر [4] :

أعينى جـودا ولا تجمدا ... ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجرىء الجواد ... ألا تبكيان الفتى السيـدا
رفيع العماد طويل النجا ... د ، ساد عشيرته أمردا
إذا بسط القوم عند النضال ... أكفهم تبتغى المحمـدا
وكان ابتـدارهم للعـلا ... سار فمـد إليهـا يدا
فنـال الذى فوق أيديهم ... من المجد ثم انتمى مصعدا
ويحمل للقوم ما عالهـم ... وإن كان أصغرهم مولدا
جموع الضيوف إلى بيته ... يرى أفضل الكسب أن يحمدا
غياث العشيرة إن أمحلوا [5] ... يهين التلاد [6] ويحيى الجدا [7]

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٧٧ .
(٢) جرثومة الشىء : أصله .
(٣) والبسوق : الطول .
(٤) أنيس الجلساء فى ديوان الخنساء .
(٥) المحل : الجدب وانقطاع المطر . (٦) المال . (٧) المطر .

الزواج

من العسير أن نحدد القواعد التى كان يتبعها العرب القدماء بشأن الزواج . فلم يوجد فى واقع الأمر قبل الإسلام أى تشريع أو منظمة قضائية واضحة المعالم ، اللهم سوى طائفة من التقاليد أدت إلى العرف الذى اكتسب على مر الزمن قوة القانون . ولقد أغفل المؤرخون أو رواة التقاليد والشعراء — وكان الشعراء أول المؤرخين وأشدهم سحراً ودقة — أن ينبئونا عن القوانين المدنية التى كانت تنظم شئون الناس وشئون المال فى عصر الجاهلية. فلقد وقف الجميع جهدهم على أن يرسموا لنا بالتفصيل خطوط أنساب الرؤساء والقبائل والجياد ، وراق لهم أن يفيضوا فى الحديث عن أصغر حوادث الحروب أو « الأيام » الشهيرة ، ولم يخطر لواحد منهم — شاعراً كان أم مؤرخاً — أن يخبرنا عن النظام التشريعى والقضائى للعرب القدماء ، وأن يتحفنا بمجموعة من قرارات وأحكام القضاة الذين كانت القبائل تعهد لهم بمهمة الفصل فيما ينشب من نزاع يومى بين القبائل أو الأفراد . لقد كانت تستأثر بنشاطهم الحركة والمغامرة فلا تدع لهم روية التشريع وسن القوانين والتفكير الفلسفى ، بقدر ما كانت تتيح لهم فرصة التبارى فى فصاحة الكلام إذا انتهت بينهم حرب الرمح والحسام ، فيتغنون بمآثرهم ويشيدون بأسلحتهم وجيادهم وأجدادهم ؛ وأما ما عدا ذلك فهيهات أن يعيروه اهتماماً .

على أن شراح الأمثلة القديمة ومفسرى القرآن قد أمدونا فى موضوع بحثنا هذا بمعلومات مفيدة ، ولعلها هى المعلومات الوحيدة التى يستطيع الخلف أن يحيطوا بها فى هذا المضمار . فقد حرص بعض الفقهاء — وهم بصدد بعض الآيات القرآنية المتصلة بالزواج — على ذكر ما كانت تجرى عليه الأمور فى الجاهلية . ومن تلك الروايات نستدل على أن الزواج لم يكن مباحاً بين كل امرأة وكل رجل على الإطلاق ، بل كانت هناك محارم. فما كان يجوز لأم أن تقترن بابنها ولا لأب أن يقترن بابنته، ولا للاخ غير الشقيق بأخته، ولا للخالة بابن أختها . وفيما عدا هذه المحارم ، كان لكل امرئ أن يتزوج من النساء ما تتيح له قدراته أن يتزوج .

وقد عرف العرب فى الجاهلية عدة أنواع من النكاح ، نبدأ بذكر أخصها :

(١) زواج « الصفا » أى زواج التجربة ؛ وكان للمرأة كما كان للرجل الحق فى فصم عراه إذا لم تكن التجربة مرضية .

(٢) « نكاح المتعة » ، وهو زواج كان يعقد لأمد معلوم كسنة أو سنتين أو مجهول كقدوم (فلان) ، وكان من المستطاع أن يمد أمده إذا استدعى الحال ، أو أن يتحول إلى زواج دائم حتى آخر العمر .

(٣) نكاح « الرهط » ، وهو بين امرأة وعدد من الرجال ، لا يتجاوز العشرة على كل حال ، تختارهم هى أو ترضى بهم أزواجاً . وكانت تلك المرأة إذا ولدت ذكراً أرسلت فجمعت أزواجها كلهم وأعلنت أمامهم :

« أنه ابنك يا فلان » . وهكذا كانت تصل برباط البنوة ما بين وليدها وبين الرجل الذى تؤثره على الآخرين ، أو الرجل الذى تقنعها أسباب خاصة بأنه هو أبو الطفل حقاً . وكان على الرجل الذى تعينه المرأة بهذه الصورة أن يعترف بأبوة طفل هو ثمرة التعاون الودى قبل كل شىء (أما إذا كان المولود بنتاً فإنها لا تنسبها إلى أحد) .

وأما النسوة المتبذلات اللواتى كن يرفعن على أبواب خيامهن أعلاماً ، ويتصلن بأى طارق ، فكان أطفالهم ينسبون إلى من يشبهونهم من أولئك الرجال .

(٤) « نكاح الشغار » ، وهو زواج بلا مهر ، فقد كان الرجل يزوج ابنته أو أخته ، على أن يتزوج هو ابنة ذلك الزوج أو أخته أو ابنة أخته دون صداق . وتلك مقايضة لا ينبغى أن نخلط بينها وبين :

(٥) « نكاح البدل » ، وهو تبادل حقيقى يتنازل فيه الرجل عن زوجته إلى رجل آخر مقابل تنازله هو الآخر عن زوجته له .

(٦) « نكاح الاستبضاع » : فكان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من حيضها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه أى اطلبى منه الاجتماع لتحملى منه ؛ ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل . وإنما يفعل ذلك رغبة منه فى نجابة الولد . يطلبون ذلك من أكابرهم ورؤسائهم فى الشجاعة أو الكرم أو غير ذلك .

(٧) وآخر أنواع الزواج « المقت » . وكان يحدث عقب موت

الزوج إذا ألقى ابنه الأكبر رداءه على أرملة أبيه التى ليست أماً له — وهو يعنى بذلك أنه ورث الاستمتاع بها [1] . وكان له أيضاً أن ينزل عنها لواحد من إخوته نظير مهر معلوم . ولكن ذلك الزواج كان بغيضاً فسمى « بالمقت » ، وسمى من يعمد إليه « الضيزن » أى الغريم، لأنه كان ينافس أباه .

تلك كانت أنواع الزواج الغريبة التى انتشرت بين العرب قبل الإسلام. وتنقصنا الوثائق التى يمكن على ضوئها أن نحدد فى أى الحقب وأى القبائل وأى الطبقات الاجتماعية ساد هذا اللون أو ذاك من ألوان الزواج . وأما ما نستطيع أن نؤكده ، فهو أن هذه الزيجات كانت زيجات استثنائية . فإنها تناقض تناقضاً بيناً ما نعلمه من الاحترام الذى أظهره العرب للمرأة فى جميع العهود، هذا الاحترام الذى تشهد به وقائع التاريخ، كما تشهد به مواقف القصص المأثورة وقصائد الشعر . وإنها لتناقض أيضاً ما نعرفه من سجايا العربى؛ فلا جدال فى أن العرب قد حرصوا فى كل شىء على النبل والنقاء ، ولا سيما فى أنسابهم . وهذه أنسابهم تقرن اسم الأب باسم الأم ، وأسماء الأبناء بأسماء البنات ، ولا يكتمل النسب العريق إلا إذا انتمى المرء من « كلا الجانبين » إلى أسرة تليدة . ولقد كان المرء يفخر دائماً بعمومته وخئولته ، ويفخر فوق كل شىء بصفاء أصله . يقول

---

(١) ولكن الأرملة إذا استدركت حركة الوارث وعادت إلى عائلتها الأصلية استطاعت فى هذه الحال أن تستقل بنفسها وأن تتصرف كما تشاء (الطبرى : تفسير القرآن) .

السموءل بن عادياء :

صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا[1] إناثٌ أطابت حملنا وفحـــول
علونا إلى خير الظهور وحطنـــا لوقت إلى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن [2] ما فى نصابنا[3] كهام [4] ولا فينا يعد بخيـــيل

غير أنه من اليسير فيما يبدو لنا أن نفسر هذا التناقض البين الذى أبرزناه ، بالاعتبارات التالية :

(١) لا تزال المرأة بعد الزواج تربطها بعائلتها الأولى أواصر أقوى مما يربطها بعائلة زوجها . وهذا ما يعبر عنه المثل القديم القائل : « الزوج يوجد ، والولد يولد ، ولا عوض عن الأخ » . وهكذا لا تحتمى الزوجة بزوجها فحسب ، بل تحميها من شر معاملته تلك الكتيبة التى تتألف من إخوتها وأعمامها وبنى عمومتها .

(٢) كان الدور الذى تؤديه المرأة فيما قبل الإسلام دوراً اجتماعياً أقل مما هو دور عائلى ، فلم تكن تصبح بالزواج قرينة لزوجها فحسب ، بل معيناً نفيساً يساهم فى إسعاد القبيلة بوجه عام . فرسالتها هى تغذية المحاربين برجال أشداء شجعان ، وإنجاب أبطال عديدين . . . وأما فى نطاق

---

(١) السر : الأصل الجيد .
(٢) المزن : السحاب الأبيض وماؤه أطهر المياه لسلامته من الاستعمال .
(٣) النصاب : الأصل .
(٤) الكهام : الكليل الحد . ديوان الحماسة ج ١ ص ١١٥ .

العائلة، فيبدو أنها لم تكن ذات كيان خاص وشخصية مستقلة ، بل كانت خاملة الذكر . فهى زوج وهى أم ، ومن هاتين الوظيفتين كانت تتوالى عليها الواجبات أكثر مما تنشأ لها الحقوق والامتيازات . وأما فى الخارج ، وحيث تتجاوز سجن الزوجية ، فهى امرأة — أى « مواطنة » كما نقول اليوم — تتساوى بالرجل ؛ وعلى هذا الأساس يحق لها أن تطلق العنان لملكاتها ، مما يتيح لها أن تتفوق وأن يسطع نجمها ، وأن تقرر أمر الحرب والسلم .

بل ولعلنا نستطيع أن نجد قيمة أخلاقية ما ، فى هذه الزيجات التى تبدو لأول وهلة منافية للأخلاق الشريفة . فإن لها الفضل فى إلغاء طائفة « البنات الأمهات » و « أولاد السفاح » ، من حيث أن البغى كانت تعتبر زوجة للرجل الذى أنجب الطفل ، ومن حيث أن هذا الطفل كان يحمل اسم أبيه التقديرى ناجياً بذلك من وصمة العار التى تتعقب مثله من نعته « بالابن غير الشرعى » أو « الابن الطبيعى » .

على أنه كان يوجد خارج هذه المجموعة من أنواع الزواج وعداها ، صورة للزواج أكثر انتظاماً ورقياً ، وهى أغلب حالات التزاوج : وتلك هى صورة الأب ينبئ ابنته بأن فلاناً يطلب يدها ، فإذا قُبل العرض ، مد الأب يده فصافح الخطيب أو الوصى عليه أو مندوبه وتم الاتفاق ، وإذا رفض العرض أرغم الأب ابنته على الزواج .

وإليكم قصة خطبة القائد الباسل دريد بن الصمة للخنساء :

« مر دريد بن الصمة بالخنساء بنت عمرو بن الشريد وهى تهنأ

بعيراً لها وقد تبذلت حتى فرغت منه ، ثم نضت عنها ثيابها فاغتسلت ودريد يراها وهى لا تشعر به ، فأعجبته ، فانصرف إلى رحلة وأنشأ فى ذلك شعراً .. فلما أصبح غدا إلى أبيها فخطبها إليه . فقال له أبوها : مرحباً بك أبا قرة إنك للكريم لا يطعن فى حسبه ، والسيد لا يرد عن حاجته ، والفحل لا يقرع أنفه . ولكن لهذه المرأة فى نفسها ما ليس لغيرها وأنا ذاكرك لها وهى فاعلة ، ثم دخل إليها وقال لها : يا خنساء ، أتاك فارس هوازن وسيد بنى جشم دريد بن الصمة يخطبك وهو من تعلمين — ودريد يسمع قولها — . فقالت : ياأبت ، أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم هامة اليوم أو غد ! فخرج إليه أبوها وقال : يا أباقرة قد امتنعت ، ولعلها أن تجيب فيما بعد. فقال : قد سمعت قولكما وانصرف [1] .

---

(١) وقيل قالت لأبيها : أنظرنى حتى أشاور نفسى ، ثم بعثت خلف دريد وليدة فقالت لها : انظرى دريدا إذا بال ، فإن وجدت بوله قد خرق الأرض ففيه بقية ، وإن وجدته قد ساح على وجهها فلا فضل فيه. فأتبعته ولديّها ثم عادت إليها فقالت : وجدت بوله قد ساح على وجه الأرض ، فأمسكت . وعاود دريد أباها ، فعاودها فقالت له هذه المقالة المذكورة ثم أنشأت تقول :

أتخطبنى هبلت على دريد ... وقد أطردت سيد آل بدر
معاذ الله ينكحنى حبركى ... يقال أبوه من جشم بن بكر
ولو أمسيت فى جشم هدياً ... لقد أمسيت فى دنس وفقر

فغضب دريد من قولها وقال من قصيدة طويلة فى هجائها :

وتقدم لنا أخبار العرب كذلك أمثلة عديدة من فتيات مطلقات التصرف يتزوجن من يخترنه بأنفسهن . ودون أن نتحدث عن « صدوق » التى تزوجت « حوران الجديد » ، وعن الحسناء « خود » التى شاءت أن تكون عروس أبى نواس الأسود، وعن « ماوية » التى بعد أن امتحنت خطابها الثلاثة فى قرض الشعر وفيض الكرم تخيرت أشعرهم وأكرمهم « حاتما الطائى » ، حسبنا أن نورد عن كتاب «الأغانى»، تلك الملابسات التى أدت بـ « ريطة » إلى أن تعرض يدها على الفارس ربيعة :

فقد أورد عمرو[1] بن معد يكرب فى حديث له طويل مع سيدنا عمر ابن الخطاب عن شجاعة ربيعة بن مكدم قوله « خرجت ريطة من خيمتها فجلست بين صواحب لها ، ثم دعت وليدة من ولائدها فقالت لها : ادعى فلاناً . فدعت لها رجلا من الحى . فقالت له : إن نفسى تحدثنى أن خيلا تغير على الحى ، فكيف أنت إن زوجتك نفسى ؟ فقال : أفعل وأصنع . . فجعل يصف نفسه فيفرط . فقالت له : انصرف حتى أرى رأيى . وأقبلت على صواحباتها فقالت : ما عنده خير . ادعى لى فلاناً . فدعت آخر فخاطبته ، فأجابها بمثل جوابه ، فقالت له : انصرف حتى

وقاك الله يا ابنة آل عمر ... من الفتيان أمثالى ونفسى
فلا تلدى ولا ينكحك مثلى ... إذا ما ليلة طرقت بنحس
وتزعم أننى شيخ كبير ... وهل خبرتها أنى ابن امس
تريد شرنبث القدمين شثناً ... يبادر بالجدائر كل كرس

(١) الأغانى جـ ١٤ ص ١٣٢ . (تحقيق)

أرى رأيي ، وقالت لصواحباتها: وما عند هذا خير أيضاً . ثم قالت للوليدة : ادعي لي ربيعة بن مكدم ، فدعته فقالت له مثل قولها للرجلين ، فقال لها : إن أعجز العجز وصف الرجل نفسه ، ولكني إن لقيت أعذرت ، وحسب المرء غناء أن يعذر . فقالت له : قد زوجتك نفسي ، فاحضر غداً مجلس الحي ليعلموا ذلك . »

ولقد أقر التاريخ اختيار « رويطة » ، فقد أصبح « ربيعة » أروع فرسان بلاد العرب القديمة .

المهر

لا زواج دون مهر ، إلا « نكاح الشغار »، حيث يقدم المرء عروساً ويتزوج نظيرها ، فيتكافأ بذلك المهر الذى يجب عليه أن يدفعه والمهر الذى ينبغى له أن يناله . وكان الخاطب أو وكيله يدفع المهر لأبى الفتاة ، أو لمندوبه الذى قد يكون أخاه أو ابن عمه ، وهو على كل حال أكبر أفراد الأسرة سناً . وكانت قيمة المهر يحددها الأب أو يقدمها الخاطب من تلقاء نفسه عند ما يطلب الزواج .

ونقرأ فى كتاب « الأغانى » أنه لما ذاع حب ليلى والمجنون، وتناشد الناس شعره فيها ، طلب قيس يدها من أبيها وبذل لها خمسين ناقة حمراء . وكذلك طلبها ورد بن محمد العقيلى وبذل لها عشراً من الإبل وراعيها . فقال أهلها : نحن مخيروها بينكما فمن اختارت تزوجته . ودخلوا إليها فقالوا : والله لئن لم تختارى وردا لنمثلن بك .

ولقد قال المجنون آنئذ أبياتاً نثبتها هنا إتماماً للفائدة [1] :

ألا ياليل إن ملكت فينا ... خيارك فانظرى لمن الخيار
ولا تستبدلى منى دنيـــا ... ولا برما إذا حب القنار [2]

---

(١) الأغانى جـ ٢ ص ١٤ . (تحقيق)
(٢) ريح اللحم المشوى .

يهول فى الصغير إذا رآه وتعجزه ملمات كبار
فمثل تأيم منه نكاح ومثل تمول منه افتقار

فاختارت ليلى ورداً فتزوجته على كره منها .

وفيما عدا النوق والرعيان ، ربما كان المهر من سلع مختلفة ، كقطعان الضأن أو العطور أو الأقمشة ، أو قطع النقد من الفضة أو الذهب . . . وكان المهر بمثابة ثمن للفتاة أى قيمتها التجارية ، باعتبار سنها وأوصافها البدنية والخلقية ونسب أسرتها ومركز أبيها بين أفراد القبيلة . ولا ينبغى أن ننسى أن الزيجات كانت تنشئ بين بعض القبائل وبعض ، أواصر وعهوداً تدفع الأصهار إلى أن يتضامنوا ويذود بعضهم عن بعض إذا ألمّ الخطر .

وقد أسلفنا القول بأن المهر كان يدفع ويسلم لأبى الفتاة ، وينبغى أن نضيف إلى ذلك أنه كان يصبح ملكه الخاص . وهكذا كانت الفتيات مصدر ثروة ما دامت مهورهن مزيداً لتراث الأسرة . ولذا كان القوم يبادرون إلى تهنئة الأب الذى تولد له بنت قائلين : « هنيئاً لك النافجة » أى السحابة الكثيرة المطر . فلقد كانت الفتاة ، كماء السحاب تخصب أرضه وتنمى ماله .

وما دامت البنات — فضلا عما تكنه لهن عواطف الأبوة من حب — مصدر ثراء ، فما بال بعض القبائل تئدهن ؟ « لقد كان بعض العرب

حين تولد لهم بنت ، يدفنونها فى الحال ، يدفعهم إلى هذا العمل الوحشى إملاقهم ، أو إسرافهم فى الاعتزاز بأنفسهم وبشرفهم ، إذ يتفادون بذلك وصمة العار التى قد تلحق بهم يوم يخطف ابنتهم عدو يهتك عرضها »[1].

ويقول الميدانى ، عن الهيثم بن عدى : إن وأد البنات كان منتشراً فى جميع قبائل العرب على السواء ، ولكن بنسبة واحد يزاوله إلى عشرة يحرمونه . وقد انقضت هذه العادة الوحشية فى كل القبائل عند ظهور الإسلام ، فيما عدا قبيلة تميم التى تمادت فى اتباعها أكثر من ذى قبل .

وسواء أكان بنو ربيعة أم بنو تميم هم الذين ابتكروا تلك العادة ، فإن ذلك لا يعنينا كثيرا ، وإنما يعنينا أن نلاحظ أن الكتاب قد أجمعوا على أن السبب الأول لوأد البنات كان خشية « خيانة » الجنس الضعيف . ولدينا عن هذه الخيانة الأولى عدد لا بأس به من القصص التى لا تتفق فيما بينها على الزمان أو المكان ، ولا على الملابسات التى اكتنفت الحادث ، وإنما تروى جميعها اختطاف عدد من البنات يخيرن بعد ذلك بين العودة إلى أهلهن وبين البقاء لدى خاطفيهن ، فيقبلن أن يعدن إلى أهلهن ، ما عدا واحدة هى ابنة زعيم شهير أو ابنة أخته ، تجرؤ على أن تفضل عاشقها على أهلها ! وهنالك يشعر الزعيم بالخزى والعار فيغضب ويقسم ليئدن كل بنت تولد له فى المستقبل . وإذا بقومه يقتدون به خشية أن تجر عليهم بناتهم الهوان ذات يوم ، فخورين بأن يضحوا — فى سبيل

(١) كوسان دى برسفال ، الجزء الأول ، ص ٣٥١ .

الشرف ــ أعز ما لديهم فى الدنيا . . بناتهم . . « لحمهم ودمهم » .

ولقد قضى الإسلام على هذه العادة « المشئومة » . ومن الحق أن نلاحظ أنها كانت فى طريقها إلى الانقراض من تلقاء نفسها ، وأن رجالا مَن أولى الشفقة كانوا قبل ظهور النبى يسعون سعيا كريما فى افتداء حياة أولئك المنكودات البريئات .

الطلاق

كان قدماء العرب يعترفون للزوج — بوجه عام — بحق تسريح زوجته . ولكى يصبح هذا الطلاق نهائيا ، كان يشترط أن يتكرر ثلاث مرات فى فترة من الزمن معلومة . وكثيراً ما كان الزوج يسرح زوجته مرة ومرتين ، ثم يستردها قبل انقضاء المدة المعلومة ، فيضطرها بذلك إلى أن ترزح تحت نيره إلى أجل غير محدود .

وكانت صيغ الطلاق عديدة ، أعمها أن يقول الزوج لامرأته : « عودى لأهلك » أو « ارجعى لأبيك » .

وكان للزوجة أيضاً الحق فى فصم عرى الزواج . وكانت تتخذ فى ذلك وسيلة رمزية ؛ إذ تحول فتحة الخيمة المؤدية لحدرها إلى الناحية المضادة ، فتجعلها نحو الجنوب بدلا من الشمال مثلا ، حتى إذا عاد الزوج ووجد الباب مغلقا ، فهم المراد ، وانقطع بذلك رباط العشرة فى سكون ، وأصبح كل من الزوجين — دون تبادل التحيات — غريبا عن صاحبه تمام الغربة .

وكانت المرأة تستطيع كذلك أن تحصل على حريتها مقابل تعويض تدفعه للزوج ، وقد جرت العادة على أن يكون هذا التعويض مساويا

لقيمة المهر الذى سبق أن قدمه الزوج . وكان هذا النوع من الطلاق يعرف « بالخلع » .

وها هى ذى قصة طلاق هند بنت عتبة ، عن « العقد الفريد »[1] . وأنها لصورة من صور المجتمع قد يتوق القارئ لاجتلائها :

« كان الفاكه بن المغيرة المخزومى أحد فتيان قريش ، وكان قد تزوج هند بنت عتبة . وكان له بيت للضيافة يغشاه ، الناس فيه بلا إذن . فقال[2] يوما فى ذلك البيت وهند معه ثم خرج عنها وتركها نائمة . فجاء بعض من كان يغشى البيت . فلما وجد المرأة نائمة ولى عنها . فاستقبله الفاكه بن المغيرة ، فدخل على هند وأنبهها ، وقال : من هذا الخارج من عندك ؟ قالت : والله ما انتبهت حتى أنبهتنى ، وما رأيت أحداً قط . قال : الحقى بأبيك . وخاض الناس فى أمرهم . فقال لها أبوها : يا بنية ، أنبئينى شأنك ، فإن كان الرجل صادقاً دسست عليه من يقتله ، فينقطع عنك المقالة ، وإن كان كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن . قالت : والله يا أبت إنه لكاذب . فخرج عتبة فقال : إنك رميت ابنتى بشىء عظيم ، فإما أن تبين ما قلت ، وإلا فحاكمنى إلى بعض كهان بنى اليمن . فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عتبة فى رجال ونسوة من بنى عبد مناف . فلما شارفوا بلاد الكاهن تغير وجه هند ، وكسف بالها ،

---

(١) جـ ٦ ص ٨٦. انظر أيضاً رواية « الأغانى » جـ ٩ ص ٥٣ ، ٥٤. (تحقيق)

(٢) القائلة : نصف النهار . قال قيلة وقيلولة : نام فيه .

فقال لها أبوها: أى بنية ، ألا كان هذا قبل أن يشتهر فى الناس خروجنا ! قالت : يا أبت ، والله ما ذلك لمكروه قبلى ، ولكنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب ، ولعله أن يسمنى بسمة تبقى على ألسنة العرب . فقال لها أبوها : صدقت ، ولكنى سأخبره لك . فصفر بفرسه ، فلما أدلى ، عمد إلى حبة بر فأدخلها فى إحليله ، ثم أوكى[1] عليها وسار . فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فقال له عتبة : إنا أتيناك فى أمر وقد خبأنا لك خبية فما هى؟ قال : ثمرة فى كمرة . قال : أريد أبين من هذا . قال : حبة بر فى إحليل مهر . قال : صدقت ، فانظر فى أمر هؤلاء النسوة . فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ويقول : قومى لشأنك ؛ حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها وقال : قومى غير رسحاء[2] ولا زانية ، وستلدين ملكا يسمى معاوية . فلما خرجت ، أخذ الفاكه بيدها ، فنثرت[3] يده من يدها وقالت : والله لأحرصن أن يكون ذلك الولد من غيرك . . فتزوجها أبو سفيان فولدت له معاوية[4] .

---

(١) ربط عليها .

(٢) رسحاء : قبيحة .

(٣) نثرت : جذبت بشدة .

(٤) ذكروا أن هند بنت عتبة بن ربيعة قالت لأبيها : يا أبت : إنك زوجتنى من هذا الرجل ولم تؤامرنى فى نفسى ، فعرض لى معه ما عرض ، فلا تزوجنى من أحد حتى تعرض على أمره ، وتبين لى خصاله ؛ فخطبها سهيل بن عمر وأبو سفيان بن حرب ، فدخل عليها أبوها وهو يقول : =

... ...

= أتاك سهيل وابن حرب وفيهما رضا لك يا هند الهنود ومقنع
وما منهما إلا يعاش بفضله وما منهما إلا يضر وينفع
وما منهما إلا كريم مرزأ وما منهما إلا أعز سميدع
فدونك فاختاري فأنت بصيرة ولا تخدعي إن المخادع يخدع

قالت: يا أبت، والله ما أصنع بهذا شيئاً، ولكن فسر لى أمرهما، وبين لى خصالهما، حتى أختار لنفسى أشدهما موافقة لى. فبدأ يذكر سهيل بن عمر، فقال: أما أحدهما ففى سطة من العشيرة (أى من أوساطهم وخيارهم) وثروة من العيش، إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط إليك، تحكمين عليه فى أهله وماله. وأما الآخر، فوضع عليه، منظور إليه فى الحسب الحسيب، والرأى الأريب، مدره أرومته، وعز عشيرته، شديد الغيرة، كثير الطيرة، لا ينام على ضعة، ولا يرفع عصاه عن أهله. فقالت: يا أبت الأول سيد مضياع للحرة، فما عست أن تلين بعد أبائها، وتصنع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأثرت وخانها أهلها فأمنت، فساءت عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها، فإن جاءت بولد أجمعت، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت، فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه لى.

وأما الآخر، فبعل الفتاة الخريدة، الحرة العفيفة، وإنى للى لا أريب له عشيرة فتغيره ولا تصيبه بذعر فتضيره، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة، فزوجنيه، فزوجها من أبى سفيان فولدت له معاوية وقبله يزيد. » (تحقيق)